مـــــاذا فعل جـــــورجـيـــــو - أورويـل - مـــــاركـيـــــز؟

"الـــسـيـــاســـة" مـــوضـــوعـــةً في الـــروايـــة

سعـد محمـد رحيم

يحيل مصطلح الرواية السياسية إلى أفق المضمون أو المحمول السردي، وليس إلى قضية شكلانية، ومنذ القرن التاسع عشر جرى استخدام ثيمة المعضلات السياسية وتاريخ الوقائع السياسية في المتن الروائي، كما في روايات ستندال وتولستوي وديكنز وغيرهم، إلا أن التعاطي مع السياسة مسألة أساسية هو امتياز لروائيي القرن العشرين، فمشاكل الصراعات والحروب والحرية والدكتاتورية وامتهان كرامة الإنسان، ومقارعة الاستعمار، وجدت لها في روايات القرن المذكور مساحات واسعة. وكان لروائيي آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية حصتهم المميزة في هذا الجانب. تناول الروائي الانكليزي جورج أورويل موضوعة النظام الشمولي في روايته (١٩٨٤) التي تعد يوتوبيا مضادة، قاتمة تنم عن يأس مستفحل. ففي هذه الرواية يجد المرء نفسه مراقباً (بفتح القاف) في كل لحظة وحين، بوساطة كاميرات منتشرة ومنصوبة حتى في غرف النوم. وفي الطرقات والساحات يطالعه وجه الرئيس، وتحته عبارة (الأخ الأكبر يراقبك) وفي سياق سياسة الأخ الأكبر يختزل قاموس اللغة إلى مفردات محدودة حيث تستبعد منها تلك الثنائيات المتناقضة لتتعطل عند الإنسان قدرته على التفكير.

جورج اورويل

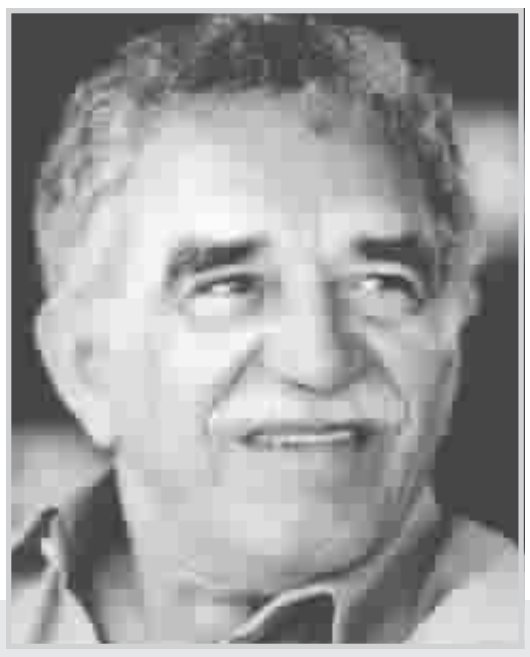
ماركيز

أما في رواية (خريف البطريرك) لماركيز فنجد مناخاً مختلفاً على الرغم من أن الموضوعة هي عينها، ففي هذه الرواية يهيمن البطريرك على السلطة لعقود، وحين يموت يخشى وزراؤه وقادته الاقتراب منه إلى أن تحطم العقبان زجاجات النوافذ الخارجية للقصر الرئاسي وتهجم عليه لتأكل من لحم جثته، ولأولئك الوزراء والقادة مسوغهم في ذلك لأن البطريرك سبق له وأن قام من رقدة موته وأعدم وزراءه وقادته السابقين بعدما رآهم مبتهجين لمناسبة رحيله عن هذا العالم.
وإذا كانت رواية أورويل تنطوي على طابع مأساوي مقبض وسوداوي فإن رواية ماركيز هي تراجيكوميديا تصور المأساة من منظور ساخر.

❖ ❖ ❖

أقتيد ايوهان موريتز في رواية (الساعة الخامسة والعشرون) للروائي الروماني كونستانتان جيورجيو إلى معسكرات لحفر خنادق عشية الحرب العالمية الثانية بادعاء أنه يهودي، ولم يكن كذلك (أراد ضابط المخفر في قريته إبعاده لينفرد بزوجته) وهرب من المعسكر الذي كان داخل رومانيا إلى هنغاريا فأعتقل بتهمة كونه جاسوساً رومانياً، ثم منح للألمان النازيين بادعاء أنه عامل هنغاري متطوع، فعمل هناك حتى تعرف عليه ضابط مسؤول عن الدراسات العنصرية قال عنه (عن موريتز) أنه ينتمي إلى الأسرة (الشجاعية) ذات العرق الآري النقي فجعلوه جندياً في وحدات الحراسة وتزوج من امرأة ألمانية/ وكانوا قبل ذلك قد أوهموه أن زوجته الأولى طلقته. وقبل نهاية الحرب هرب خمسة من الأسرى الفرنسيين وهرب معهم فاستقبلهم الأميركيون بحفاوة، ثم عزلوه عن الفندق الذي أسكنوه فيه لأنه ينتمي إلى أمة معادية واعتقلوه، فمر على عدد كبير من معسكرات الاعتقال حتى قدم إلى محاكمات نورمبرغ وأطلق سراحه بعد سنوات ليعود إلى زوجته الأولى (سوزانا) التي سبق لها وأن راسلته، وكانت إذ ذاك في ألمانيا الغربية وبقي معها عدة ساعات خارج البيت وحين عادا كان الجنود بانتظاره فاقتيد إلى معسكر للحجز لأنه روماني ولأن الحرب الباردة كانت قد بدأت. في هذا المعسكر الذي كان تحت حراسة البولونيين صار يفكر بالهرب فقال له أحد معارفه من الذين التقاهم هناك؛ "إذا أخطأك البولونيون فإنك ستقتل من قبل العسس الأميركي أو الألماني قبل أن تصل إلى رومانيا.... إنك ستلاقي في طريقك جنوداً نمساويين وتشيكيين وفرنسيين وهنغاريين، فلا تصل أبداً إلى رومانيا.. سوف ينالونك في الطريق. فإذا تفاديت بنادق أمة ونجوت من جنودها قتلتك الأمة التي تليها.. إن بينك وبين بيتك وبين أسرتك يا عزيزي موريتز، تقوم أمم العالم، أمم مسلحة تريد قتلك.... إن هذا الجيش الدولي العالمي يقف حائلاً بين كل رجل وحياته الخاصة". وفي المناخ ذاته (مناخ الحرب والهرب) نتعرف على كيفية سحق الإنسان وإذلاله من قبل السلطة الغاشمة، التي هي، هنا، سلطة ألمانيا النازية، في رواية (ليلة لشبونة) لأريك ماريا ريماك إذ يقايض بطل الرواية (شفارتس) جواز سفره وجواز سفر زوجته التي كانت قد توفيت لتوها مع ما يمتلك من نقود مقابل أن يسرد للراوي الأول في الرواية حكايته لأنه يريد لها أن تبقى حية في ذاكرة شخص ما، ولأنه بالمقابل غير واثق من أن ذاكرته ستبقى محافظة على قوتها.

❖ ❖ ❖

استحوذت موضوعة السياسة على الرواية العربية، وكذلك الروايات التي توضع في خانة أدب ما بعد الكولونيالية، ذلك الأدب المكتوب من قبل كتاب يعيشون حالة المنفى المزدوج بين لغتين وثقافتين وينتمون إلى الأمم الخارجة لتوها من العهد الكولونيالي في آسيا وإفريقيا، وهؤلاء، في الغالب، يكتبون بلغة الدولة المستعمرة ويعيشون في العواصم المتروبولية، ويحاولون استعادة الذاكرة القومية أو يحيون من خلال السرد ذلك الجانب من التاريخ القومي بروحه وإشكالاته وتناقضاته وصراعاته.. هذه الكتابة التي أطلق عليها بعضهم تسمية الكتابة المهاجرة أرغمت نقاد الغرب على الاعتراف بها بعدما استطاعت أن تثبت حضورها وتبرهن على قدرة الإنسان المتحدر من الهامش المستعمر على الإبداع والتعبير عن ماهية ثقافته الخاصة، وتنتصر لثقافة الهجنة وتقتحم وهي محملة برؤية مختلفة ثقافة المركز وتخلخل أسس إيديولوجيا المركزية الأوربية القائمة على مبدأ التراتبية والتفوق العرقي والحضاري. وإذا كانت هذه الكتابة قد فتحت أفقاً للتعريف بثقافة ونمط حياة الشعوب التي خضعت للاستعمار فإنها أغنت الكتابة الأدبية والثقافة عموماً في الغرب برؤاها وأساليبها، وأيضاً عبر حقن اللغة (الغربية) بمفردات جديدة وطرق مبتكرة في تراكيب الجمل والعبارات.
يعزز هؤلاء المصنفون كتاباً لأدب ما بعد الكولونيالية الطابع السياسي للأدب والثقافة، لأن المضمون السياسي يفرض سطوته حتى على تلك النصوص التي أبدعوها والتي تبدو للوهلة الأولى وكأن لا شأن لها بالسياسة، فالكاتب من هذا الطراز الذي يعيش الحالة التي "أدى فيها النفي اللغوي والثقافي بالكاتب إلى انفصال عن زمانه ومكانه، لكن ذلك الانفصال لم يقض على التزامه بقيمهما الخاصة... ومن خلال اللغة العالمية التي استخدمها هؤلاء الكتاب، فإنهم لم يخلصوا العالم من عبء الصور المشوهة التي خلفها الاستعمار حسب، بل نجحوا في تحديد موقعهم وتمجيد التجربة التي تقف وراء ذلك الموقع. لقد غير هؤلاء الكتاب صورة بلادهم ليس في عيون العالم حسب، بل في عيون شعوبهم نفسها" كما يقول كاريث كريفتس في مقدمة كتابه (المنفى المزدوج: الكتابة في إفريقيا والهند الغربية بين ثقافتين). ويمكن إدراج أسماء كثيرة تحت هذه اليافطة منهم أشيبي وسونيكا وأرماه ونيبول ومايكل أونداتشي وأنيتا ديساي، وغيرهم كثير.
أما في الرواية العربية فقد غدت السياسة هي الموضوعة الأثيرة منذ عرفت الثقافة العربية هذا النوع السردي في بدايات القرن العشرين حيث كانت البلدان العربية نفسها تخوض كفاحها من أجل الاستقلال والتخلص من السيطرة الكولونيالية، في الوقت الذي كان فكر النهضة والتنوير المستند إلى قيم العقل والعلم والإنسانية يأخذ بالانتشار. ولعل جملة المشكلات التي رافقت مرحلتي الكولونيالية وما بعدها عربياً على صعد السياسة والمجتمع والاقتصاد والتي جعلت النخبة المثقفة تنساق نحو الانشغال بالسياسة هي ما فرضت على المبدع الروائي التفكير بالسياسة، فتشرب نتاجه بالبعد السياسي. وبعدما صار الأدباء من ضمن تلك النخبة المستنيرة، وأحياناً على رأسها، باتت السياسة مضموناً مكرراً للنصوص الأدبية .
تناولت الرواية العربية الموضوعة السياسية الخاصة بصراع الإنسان من أجل حريته وكرامته، ومقارعة الاستعمار الخارجي من جهة والسلطة المستبدة من جهة أخرى. ولعل روايات عبدالرحمن منيف (شرق المتوسط) و (الآن/ هنا شرق المتوسط ثانية) ومعظم روايات نجيب محفوظ، لا سيما رواية (الكرنك)، إلى جانب روايات حنا مينة وغائب طعمة فرمان وإسماعيل فهد إسماعيل وغيرهم هي محاولات جادة لتصوير محنة الإنسان العربي، في ظل الأنظمة الشمولية، أو عند مقارعة الوضع السياسي المتردي في هذا العصر. لكن الرواية العربية في معظم نماذجها المتقدمة بقيت بهذه الدرجة أو تلك ذات محمول سياسي لا يخفى، أثر على اللغة الأدبية وعلى الأساليب والأشكال التي ظهرت بها الرواية.
لا بأس في أن تصير "السياسة" هي الموضوعة الطاغية على أكثر المنشور من الروايات في المحيط الثقافي العربي، ولكن مع التأكيد على أن يجري تناول هذه الموضوعة الخطيرة بعمق ومن دون سطحية وإسفاف، وأن لا يكون على حساب الشكل الفني، لأن العمل الأدبي الرديء يسيء إلى القضية التي يتبناها ويتمحور حولها. وفي نهاية المطاف ليس هناك التزام حقيقي خارج الكتابة المبدعة، والالتزام الوحيد للكاتب كما يقول ماركيز هو أن يكتب بشكل جيد.

حيث قرأ المتنبي قصيدتَهُ..!

عبـد الكـريم هـداد

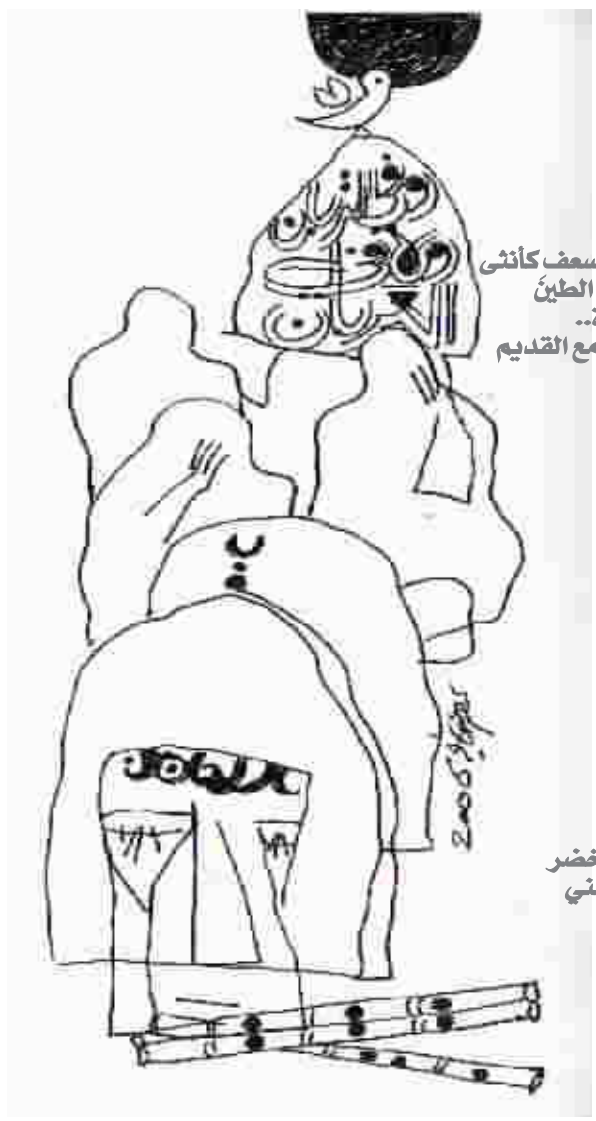

جديلتان من النخلِ
يضفر فيها الفراتُ سَرَهُ
المالح
وأنكيدو..
أرضعته الغزلان، حينَ كان..
هي بقايا خزفِ نبيذ المعبد
وحكايات الآلهة الأولى
هي أوروك وقد مرت بها لغات التكوين
وتراتيل الكهنة المختنقة بالأساطير
قبل أن يعبر بها الطوفان سريعاً
حيث حملها النهر على أكتافه
لتغفو بعمرها الآتي عند بوابة الرملِ
حيث قرأ المتنبي قصيدتَه..
لبقايا قرامطة
تفتقدهم البلادُ كثيراً..
" تركنا من وراء العيس نجدا
ونكبنا السماوة والعراقا "❖
رأيته تلك الليلة تحت شباك قمر نخلة كثة السعف كأنثى
رأيته يتجول في سوقها الريفي المسور بجدران الطينَ
تبضع تمراً وخبزاً، لم يكفيا زاد رحلته الأخيرة..
ولعله اقتنى سيفه الأخير من حداد قرب الجامع القديم
سيفاً لم يردع قاتله
بحثت عن عذب الماء
وقد مل نهر " العَطشان " ظمأهُ
على مشارفِ بحيرةِ " ساوة "
حيث حملت خطاي الوداع
نحو منفى أراد مني الخزف لا النبيذ
وبين حفنة تمر وشفة سيف جائر
سقطَ القرامطة واحداً..
واحداً
دفنتهم- كلهم - تحت رايات النسيان
وآلهة تنكرت طينها
لا تستجيب لإدعاءِ
وسومر عطر يحترقُ وطفولتي
هناك بين أبواب " عكد اليهود "..
يلتمع على دهانها صفيح السوق القديم
أتسلقه وأضواء مواكب عاشوراء
تأتي مجروحة البكاء
وفي ذاكرتي الجسر الحديدي معلقاً بلونه الأخضر
حيث الزوارق المشبعة بصيف رائحة السمكَ البني
وغابات النخيل تغفو كبقايا ليلِ الأمسِ
وقد كان..
فيض سماوي يأتي
يطارد أخيلتي
بين شوارع " باتا " و"مصيوي" و"الستين"
وصبايا زقاق "العرايا " و"دبعن"
وأسوار "سجن الخناق" وزنزانة أعرفُها
تاريخ يمرها، وتبقى مدينة لطفولتي
نخل ونهر ومنفى..!

١٨-٥-١٩٩٦

❖من شعر المتنبي.
❖السماوة مدينة عراقية تحمل إسمها البادية الواقعة بين بادية الشام ونجد.
❖نهر العطشان أحد فروع الفرات، حيث يلتقي شمال مدينة السماوة، بعد أن يمر بأرض مالحة تجعل الفرات مجاً.
❖ساوة: بحيرة تاريخية لها أسرارها الطبيعية.
❖عكد: يعني الزقاق في اللهجة العراقية. واليهود، العرايا، دبعن أسماء أزقة في مدينة السماوة.
❖ باتا، مصيوي، الستين: هي اسماء قديمة لشوارع وسط المدينة.

رسالة ألمانيا الثقافية

أصـــداء فـــوز بـــامـــوك بجـــائـــزة آداب نـــوبل

سلـمـى حـربـة
كـــولـــونـيـــا

حظي موضوع نيل أورهان باموك جائزة نوبل للآداب لعام ٢٠٠٦ باهتمام الصحافة الأدبية الألمانية الصادرة صباح يوم الثالث عشر من هذا الشهر، والتي كانت قد توقعت فوزه بالجائزة لأنه كان من أقوى المرشحين إليها وبعضها اقتبس فقرات من قرار لجنة التحكيم،عندما أعلن اسم أورهان باموك على الملأ.
لقد أبرزت جريدة" كولنشه روند شاو"مثلا الفقرة التي جاءت في قرار لجنة التحكيم: أن باموك اكتشف رموزا جديدة للصراع بين الحضارات، ولعب بفكرة الثنائيات المعروفة على أحسن حال، تلك المتجسدة في أجمل كتبه وهو " القلعة البيضاء " و أيضا في " الكتاب الأسود ". أما جريدة (لوبيكر ناخ ريشتن) فقد أشادت بوصف سكرتير أكاديمية نوبل هارولد أنجلان لأورهان باموك في خطابه " إن الذي فاز بالجائزة هو كاتب معروف عالميا و من النادر أن يجد المرء كاتبا يصور المدينة بالشكل الذي وصفه باموك في رواياته". و قد تصدر هذا القول عرضها للموضوع:كانت أكاديمية نوبل السويدية قد أصابت الحق حين منحت أورهان باموك جائزة نوبل للآداب، فهي من خلال هذا الاختيار برهنت على أنها تميل إلى جانب الاعتدال، في الوقت نفسه منحت الجائزة لكاتب معروف للجميع، كما أن كتبه قد طبعت في أكثر من مائة بلد، و مع أن مستواه الأدبي عال فإن القراء العاديين يتابعون أعماله دائما و من المحتمل أن تجعل الجائزة هذه حياة باموك آمنة أكثر لانتقاداته الشديدة الحكومة التركية و الجيش، أما بعد نوبل فأنه أصبح من الصعب الحكم علية بالسجن لإهانته الأمة التركية.
أما جريدة "برلينر موركن بوست " فقد ذكرت أن هدف الادب بالنسبة إلى باموك- كما جاء ذلك في حوار معه أجرته الاوبزرفر فاتور الفرنسية -ليس لتوجيه رسائل سياسية ولكنه يكتب من أجل الجمال وحده، حتى في روايته " ثلج " –كما قال –لم يحاول أن ينقل رسالة سياسية بل كل ما حاول فعله هو الحديث عن روح تركيا و مشاكلها وعن العنف والغضب و الأحلام التي يتم قتلها في مكان ناء من الأناضول،لكن من دون رغبة منه في المشاركة في هذه الصراعات فالأدب أولا وأخيرا يجسد الحياة بكل ما فيها وما هذه الأشياء إلا جزء منها.
و في هذا الحوار تحدث عن صراع تركيا بين حلمها الاتحاد مع الغرب و بين الحفاظ على الهوية الشرقية، بين ما هو علماني و ما هو ديني، بين الفقر و الثراء، و في هذا اللقاء باح باموك بالتأثير الكبير لرواية " الشياطين لدستويفسكي عند كتابته " ثلج "، أما حول الرأي الذي يؤكد أن الحضارتين الشرقية و الغربية من الصعب أن يتقابلا يقول باموك " أن الأديان لا تختلف عن بعضها، و لو أن راتب الموظف ثلاثون ألف يورو في السنة في تركيا بدلا من ثلاثة آلاف كما هو موجود الآن لن يكون هناك مجال للحديث عند الناس و اختلافهم مع بعضهم هنا في الدين و الثقافة و لكن مع الفقر و الجهل انطلت على الناس مثل هذه الأشياء ".
كتبت جريدة" كولنر شتات أنتسايكر ": يرى الكثير من القراء أن أورهان باموك يمثل نموذجا حيا لما يعانيه الكثير من المثقفين و الكتاب في العالم من اضطهاد و عدم إيمان من قبل حكوماتهم بحرية الرأي و الكلمة، فهو يبحث عن تكامل و سماحة الحضارات بدلا من تصادم الجهل ببعضه، و في رأيه أن الادب يصلح ما أفسدته السياسة بين الشرق و الغرب،لقد شغف باموك بالحضارة و العقل الغربيين و بناء الرواية الغربية و هو بمثابة الابن الحق لانصهار و اندماج الثقافات ببعضها و لا قيم عنده أعلى من قيم التسامح و التنوير. و قد كتبت أيضا " يحب باموك أن ينبش الماضي كثيرا في رواياته، كما في روايته " ثلج "مهما كان لونه قاتما، في وطن يعيش ظل التناقض بين الرغبة باللحاق بالحضارة الاوربية و الانضمام اليها و بين الخوف من فقدان الهوية الشرقية. لقد أنفق باموك عشر سنوات من البحث للإعداد لهذه الرواية التي تدور أحداثها في مدينة صغيرة سافر اليها و هو المقيم بألمانيا، مدينة شبه مسحورة يقترب عالمها من عالم الأساطير حيث الجليد يغطي كل شيء، في هذه القرية يتجسد عنف الصراعات السياسية و الدينية.في هذه الرواية أيضا نلاحظ أن مأساة هذه القرية لا تكمن في عدم المساواة بين البشر في كل شيء فهذا موجود في الكثير من بلدان العالم، و لا هي في الصدام بين التيار الأصولي و العلماني و لا في قضية الأصالة و المعاصرة، لكن المأساة الحقيقية هي الصدام بين حفنة من الذين يتمتعون بثروات البلاد و بين المعدمين من أبناء الشعب.
وفي صحيفة "فرانكفورتر الكمانية تسايتونغ" نقرأ:" إن باموك هو الكاتب الذي يحظى بإعجاب النخبة المتأثرة بالثقافة الاوربية و الحداثة في أنقرة و استامبول أي بإعجاب أولئك الذين ينظرون للثقافة و المبادئ الغربية في تركيا بعين التقدير.
أما صحيفة" هاندل بلات "فقد كتبت: " ثمة أبعاد سياسية لقرار الأكاديمية السويدية بمنح باموك جائزة نوبل للآداب فهو ليس مجرد روائي و حسب و إنما هو من أكبر المدافعين عن المجتمعات المنفتحة و عن حرية التعبير، و يعتبر فوزه بالجائزة بالنسبة لأنقرة سلاحا ذا حدين، فمن جهة يفوز أول كاتب تركي بهذه الجائزة، و من جهة أخرى يعتبر هو من المعارضين للحكومة التركية الحالية و للجيش فضلا عن مطالبه بالاعتراف بإبادة الأرمن و الأكراد في زمن الامبراطورية العثمانية مما سبب في ملاحقته قضائيا بتهمة إهانة الأمة التركية.كما تساءلت "ما الذي جعله يصبح هكذا أقوى المرشحين لجائزة نوبل ثم فاز بها غير اللعب على و تر السياسة "؟.
وفي صحيفة "دي تسايت "نقرأ:"ثلج "هي آخر روايات باموك، بطلها " كا "منفي عن بلاده لأسباب سياسية يعيش في فرانكفورت بألمانيا، يعود إلى استامبول بعد ١٢ عاما لحضور مأتم والدته بعد ذلك يرحل إلى مدينة بعيدة في الأناضول تدعى "قارس" و يدعي أنه صحافي قدم إلى القرية ليكتب عن الانتخابات المحلية و عن ظاهرة الفتيات المحجبات المنتحرات،انتحال صفة الصحافي يفسح المجال للكاتب لاستعراض الآراء و التناقضات التي نشأت في حقبة ما بعد انهيار الامبراطورية العثمانية، في ذلك كله كان متهما كونه ذا خلفية برجوازية يعيش في استامبول المنفتحة على الغرب و كان منفيا يعيش في ألمانيا و يرتدي معطفا أسود أنيقا، الأصوليون يتهمونه بالإلحاد و السلطة لا تريده أن يكتب عن المنتحرات لئلا تتعرض للإحراج، لكن بعد ذلك نعرف أن دافعه الحقيقي كان بسبب علمه بطلاق حبيبته "ايبك " التي تعرف اليها أيام ما كان يدرس في الجامعة من زوجها اليساري القديم، الاسلامي المتطرف حاليا، لقد شعر فجأة بعد الطلاق أنه يريدها له بأي ثمن، كانت تعيش وحدها في فندق القصر حيث وجد " كا " له مكانا فيه، و خارج الفندق تتدثر المدينة بالثلج و بأشباح زوالها حيث العمارة تشهد على مجد غابر للإمبراطورية العثمانية و كاتدرائية فارغة للأرمن، تقف شاهدة على الإبادة الجماعية التي تعرضوا لها يوم ذاك،أما الجدران فتعلوها صور مؤسس الجمهورية أتاتورك الذي كان أول من حرم ارتداء الحجاب في المدارس، هنا في هذه القرية الفتيات اللواتي تمنعهن المدارس من الدخول لأنهن محجبات يدفعهن اليأس إلى الانتحار.
أما جريدة "نويه رور،نويه راين " فقد أشارت إلى أن الجائزة هذه سياسية بالدرجة الأولى ومن هنا فان فوزه بها لم يكن محض صدفة،فضلا عن أنه روائي يحاول أن يربط بين الشرق و الغرب في كتاباته.
أما جريدة " فرانكفورتر نويه برس " و في مقال بعنوان (ضربتان قاضيتان ضد تركيا Doppel-schlag gegen Türkei):فقد اعتبرت أن الضربة الأولى لتركيا كانت موافقة البرلمان الفرنسي على القانون الخاص بتجريم كل من ينكر وقوع مذابح الأرمن و الذي سبق الإعلان عن الجائزة بيومين، أما الثانية فهي فوز باموك بالجائزة و هي التي أرادت من قبل ذلك محاكمته.

اورهان باموك